طالبة دكتوراه: نرجس بخوش

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة

تخصص: الأدب العربي المعاصر

البريد الإلكتروني: nerdjes.bekhouche7@gmail.com

عنوان المداخلة: الحوار الحضاري في شعر الأمير عبد القادر الجزائري

ملخص

يعدُّ الأمير عبد القادر الجزائري واحدا من الذين قدموا دروسا في الحوار الحضاري في فكره وشعره، وأسَّسوا ثقافة التَّسامح بين الأديان وحريَّة الفكر والتَّعايش السلمي بين الشعوب، وترسيخ مبادئ القانون الدولي لحقوق الانسان قولاً وفعلاً، وكان ذلك قبل ميلاد مواثيق الأمم المتحدة التي رأت النور بعد قرن من الزمان؛ حيث اضطرت إلى تبني قيم التَّسامح والانفتاح والبحث عن سبل التعايش والأمن بين الشعوب.

الكلمات المفتاحية: الحوار الحضاري، الأمير عبد القادر، الشعر، التَّسامح، الأديان.

Abstract

Emir Abdelkader Al-Jazairi is considered one of those who provided lessons in civilizational dialogue in his thought, and established the culture of tolerance between religions, freedom of thought, and peaceful coexistence between peoples, and consolidating the principles of international human rights law in word and deed. This was before the birth of the United Nations charters that came to light a century after The time when it was forced to adopt the values of tolerance and openness and search for ways of coexistence and security among peoples.

Keywords: civilizational dialogue, Emir Abdelkader, , tolerance, religions.

مقدمة

يعد الأمير عبد القادر الجزائري واحدا من الذين قدَّموا دروسا في الحوار الحضاري في فكره، وأسسوا ثقافة التَّسامح بين الأديان وحريَّة الفكر والتَّعايش السلمي بين الشعوب، وترسيخ مبادئ القانون الدولي لحقوق الانسان قولاً وفعلاً، وكان ذلك قبل ميلاد مواثيق الأمم المتحدة التي رأت النور بعد قرن من الزمان حيث اضطرت إلى تبني قيم التَّسامح والانفتاح والبحث عن سبل التَّعايش والأمن بين الشعوب، وسارعت إلى الإعلان العالميّ لحقوق الإنسان بعدما اكتوى العالم بنار الحرب واستيقظ على هول حربين كونيتين مدمرتين لم تخلف إلاَّ البؤس والمآسي والخراب. ولما كان الأمير عبد القادر مدرسة عالمية للتَّسامح ونشر ثقافة السلم في العالم، فقد كثرت الدراسات والكتابات حول شخصيته للتعريف بأبعادها العالميَّة؛ حيث تؤكِّد هذه الدراسات فكرةً أساسيَّةً مفادها أنَّ التجربة الشعرية للأمير تتمتَّع بقدرٍ كبيرٍ من الخصوبة والغنى، لذلك يبقى ميراث الأمير دائمًا في حاجة إلى إعادة الحفر والقراءة والدراسة بشكلٍ أعمق وتحليلٍ أدق.

أولا: مفهوم الحوار الحضاري

1/ مفهوم الحوار

- **الحوار/ لغة**

الحوار يفيد معنى الرجوع عن الشيء وإلى الشيء، يقال: حار إلى الشيء وعنه، حوارٌ ومحاورةٌ بمعنى رجع عنه وإليه. ويقال: يتحاورون أي يتراجعون الكلام[1].

- **الحوار/ اصطلاحا**

الحوار في أبسط تعاريفه هو: "حديث بين طرفين أو أكثر عن طريق السؤال والجواب، بشرط وحدة الموضوع أو الهدف، فيتبادلان النقاش حول أمر معينٍ قد يصلان إلى نتيجة، وقد لا يقنع أحدهما الآخر، ولكنَّ السامع يأخذ العبرة ويكوِّن لنفسه موقفا"[2]. غايته "توليد الأفكار الجديدة في ذهن المتكلم، لا الاقتصار على عرض

---

[1] ابن منظور، لسان العرب، طبعة دار المعارف، مصر، د.ط، د.ت، 2/ 1042.

[2] النحلاوي، عبد الرحمن، أصول التربية الإسلامية وأساليبها، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط1، 1983م، ص206.

الأفكار القديمة، وفي هذا التجاوب توضيحٌ للمعاني وإغناءٌ للمفاهيم يفضيان إلى تقدُّم الفكر"[1]. وبالتالي فإنَّ الخاصية الأولى للحوار هي ضرورة تعدُّد الأطراف المشاركة فيه، لأنَّ التعدُّد يعني ضمنياً قبول الآخر والاستعداد للتعايش معه، فالحوار لا يعني "التبعية قدر ما يعني عملية في المثاقفة تمكن الأطراف المتحاورة من إنجاز ما يطوِّر علاقتهما كذلك بموضوع الحوار"[2].

وعليه فإنَّ الحوار يعني الأخذ والعطاء والتفاعل، ونحن إذ نتحدث عن الحوار في هذا البحث فإنَّا لا نقصد به الحوار بمعناه العام البسيط، إنَّما نقصد به الحوار الحضاري في العمل الفكري والأدبي عامَّةً والشعري خاصةً بين الأنا والآخر.

2/ مفهوم الحضارة

- **الحضارة/ لغة**

الحضارة مأخوذةٌ من الحَضَر خلاف البدو، والحاضر خلاف البادي، وحضر الغائب حضوراً: قدم، ويقال حضر فلان–حضارة أقام في الحَضَر. وحاضر القوم أي جالسهم وحادثهم بما يحضره. ومنه فلان حَسَنُ المحاضرة. والحاضرة خلاف البادية، وهي المدن والقرى والريف. والعاصمة وحاضرة الشيء: القريبة منه، والحِضارة (بكسر الحاء) الإقامة في الحضر، وتأتي كذلك بالفتح، ومنه قول الشاعر:

وَمَـــنْ تَكُـــنِ الحضَـــارَةُ أَعْجَبَتْـــهُ فـــأيُّ رِجَـــالِ بَادِيَـــةٍ تُرَانَـــا[3]

وجاء في الحديث الشريف «لَا يَبِعْ حَاضِرٌ لِبَادٍ»[4]، ولما سئل عبد اللّه بن عباس رضى الله عنه عن ذلك قال: "لا يكون الحاضر سمساراً له"، وهذا منهيٌ عنه لما فيه ضرر المشتركين، فإنَّ المقيم إذا توكل للقادم في بيع سلعة الناس إليه، والقادم لا يعرف السعر ضرّ ذلك المشتري فقال صلى الله عليه وسلم: "دَعُوا النَّاسَ يَرْزُقُ اللّه

---

[1] السايح، أحمد عبد الرحيم، الغزو الفكري (الحوار الحضاري)، د.ن، قطر، ط1، 1414هـ/1993م، ص107.

[2] صحراوي، إبراهيم، هل النص الأدبي فضاء للحوار؟، مجلة الآداب واللغات، جامعة الجزائر، ع1، جوان 2006م، ص176–178

[3] ابن منظور، لسان العرب، مادة (حَضَر)، 2/ 906.

[4] رواه البخاري، في صحيحه، كتاب البيوع، باب النهي عن تلقي الركبان، برقم3،72/2162.

بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ"[1] وهذه إشارةٌ إلى ما بين البداوة والحضر من اختلافٍ.

وعليه فمعنى الحضارة لا يخرج عن دائرة الإقامة في الحضر، أي المدن والقرى، فهي نقيض البداوة، ويراد منها ما يستتبع من الإقامة في الحضر، من تعاونٍ وتآزرٍ وتبادلٍ للأفكار في مختلف ميادين الحياة، من علومٍ وعمرانٍ وثقافةٍ ومعارف، وغير ذلك ما يتصل بتقدُّم الإنسان وترقّيه في مختلف مناحي الحياة. فالحضارة في جذرها اللغوي " تعنىَ وتُركّز على الجانب الاجتماعي، وكأنَّ اللغة تشير إلى أنَّ الحضارة مفهومٌ اجتماعيٌّ منذ نشأته، كما أنَّها لا تكون إلاَّ حيث توجد علاقاتٌ اجتماعيةٌ متبادلةٌ بين الناس تظهر فيها معاني التعاون والتنظيم والانتظام في إطارٍ مكانيٍّ محدَّدٍ هو المدينة، ولعلَّ هذا فيه إشارةٌ لاهتمام النَّبي صلى الله علسه وسلم بتسمية (يثرب) باسم (المدينة)، بما يتضمَّنه لفظ المدينة من قيمٍ اجتماعيَّةٍ وحضاريَّةٍ بعيدة الأثر في النفس الإنسانيَّة"[2].

- **الحضارة / اصطلاحا**

وأما الحضارة فهي مجموعة المفاهيم الموجودة عند الأمَّة حيال الكون والإنسان والحياة، وبمعنىً آخر عقيدة الأمَّة، وما ينبثق عنها من قوانين وأنظمةً وأفكارٍ تعالج المشكلات المتعلقة بأفراد الناس وجماعاتهم في المجتمع، هي التي تمنح الأمَّة شخصيتها الحضاريَّة المتميزة، ويمكن أن تكون برأينا مدلول لفظ الحضارة، وعند تبني هذا المدلول للفظ الحضارة نجد من السهل معرفة ما بين الحضارات الغربية والمادية والإسلامية من فروق ويدرك سرّ التمايز بينها.[3]

أما مصطلح "حوار الحضارات" من المصطلحات الحديثة التي دعت إلى استعماله وشيوعه العلاقات الدولية وتشابك المصالح بين الأمم، مواضيعه وميادينه كثيرةٌ، تشمل الدين، والفكر الاجتماعيّ والسياسيّ، والتاريخ، والفنون، والقانون، والتراث، والأدب، وغير ذلك من الجوانب والأبعاد التي تتكوَّن منها الحضارة، لهذا يمكن القوا إن مفهوم حوار الحضارات العام: هو ذلك الحوار الذي يتم بين الحضارات بتوسط المنتمين إليها سواء على المستوى الفردي أو الجماعي أو الشعبي أو الرسمي، وسواء كان حواراً كلامياً أم حواراً غير كلاميٍّ، أو منظماً أو

---

[1] انظر: المبرد، محمد بن يزيد، الكامل في اللغة والأدب، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة (مصر)، ط3، 1997م، 55/1.

[2] بن الحسن، بدران، في مفهوم الحضارة، مجلة نوافذ: اتجاهات فكرية، الخميس، ذو القعدة 1424الموافق 25 ديسمبر 2003.

[3] بطاينة، محمد ضيف الله، مفهوم الحضارة، نقلا عن موقع: https://khutabaa.com/%D8 %AE/210422، بتاريخ: 2019/02/10م، الساعة: 10:25.

غير منظمٍ وفي أي مجالٍ كان، وذلك لهدفٍ موضوعيٍّ، أمَّا بمعناه المتبادر والشائع فإنَّ حوار الحضارات يقصد به الحوار الكلامي المنظم بين أتباع الحضارات لهدفٍ موضوعيٍّ"[1]. ويرى عبد الملك منصور أنَّ الهدف الموضوعي لحوار الحضارات _كما سماه_ ليس من السهل تحقُّقه أو تحقيقه في ظل وجود اختلافاتٍ جوهريَّةٍ بين الحضارات لا مناص من الإقرار بها، وتعزى هذه الاختلافات في الأساس إلى جملة أمورٍ:

-اختلاف الصبغة الدينية للحضارات والتي تحدِّد المرجعية الدينية لكل حضارةٍ ليس من السهل تذليله أو تجاوزه إلاَّ في نطاقٍ محدودٍ.

-اختلاف الصبغة القومية للحضارات، فصراع القوميات المختلفة يزيد من صعوبة الوصول إلى أهدافٍ موضوعيةٍ في عملية الحوار الحضاري.

-اختلاف المواقف بشأن الحوار بين الحضارات في ظل وجود تياراتٍ مؤيدةٍ وأخرى رافضةٍ لفكرة الحوار تحت ذريعة الحفاظ على الهوية والخصوصية[2].

ويرى روجيه غارودي* (Roger Garaudy) أنَّ: "الحوار بين الحضارات وحده يمكن أن يولِّد مشروعاً كونياً يتَّسع مع اختراع المستقبل ذلك ابتغاء أن يخترع الجميع مستقبل الجميع"[3]. وأطروحة غارودي هي دعوةٌ لتغيير منهجية التعامل الغربي مع الآخر الحضاري من خارج محيطه الغربي، والانفتاح عليه أكثر من ذلك؛ حيث يعتقد غارودي أنَّ من الواجب على الغرب أن يتعلم من الحضارات الأخرى بصورةٍ أساسيةٍ، وأنَّ الحضارات اللاَّغربية تعلمنا أنَّ الفرد ليس مركز كل شيءٍ، وأنَّ فضلها الأعظم يرجع إلى أنَّها تعلمنا كيف نكتشف الآخر، وكل الآخر دون فكرةٍ مبيَّتةٍ تضمر التنافس والسيطرة. ويُقر أنَّه لا يمكن أن يكون حوار الحضارات حقيقياً ولا جائزاً إلاَّ إذا اعتبر الإنسان الآخر والثقافة الأخرى جزءاً من ذاته، يعمِّر كيانه، ويكشف له عمَّا يعوزه[(4)].

ثانيا: المسار التاريخي للأمير عبد القادر

---

[1] المصعبي، عبد الملك منصور، حوار الحضارات: المفهوم والمقومات، ضمن أعمال ندوة (موقع الإسلام في القيم الكونية وحوار الحضارات)، مركز الدراسات الإسلامية، القيروان، تونس، 2005م، ص17.

[2] بوروايح، محمد، نظريات حوار وصدام الحضارات، ص21، 22.

* روجيه غارودي (Roger Garaudy) (1913- 1998)، فيلسوف وكاتب فرنسي، اعتنق الإسلام عام 1982م، اشتهر بنظرية "حوار الحضارات" من خلال كتابه "في سبيل حوار بين الحضارات". انظر: طرابيشي، جورج، معجم الفلاسفة، ص420.

[3] غارودي، روجيه، في سبيل حوار الحضارات، تر: عادل العوا، منشورات عويدات، بيروت، ط4، 1999، ص10.

[4] انظر: المرجع السابق، ص158- 162.

1/مولده ونشأته

الأمير عبد القادر بن محي الدين المعروف بـ عبد القادر الجزائري، ولد في قرية القيطنة قرب مدينة معسكر بالغرب الجزائري يوم الثلاثاء 6 سبتمبر 1808 الموافق لـ 15 رجب 1223 هـ، هو قائد سياسي وعسكري مجاهد عرف بمحاربته للاحتلال الفرنسي للجزائر. قاد مقاومة شعبية لخمسة عشر عاما أثناء بدايات غزو فرنسا للجزائر، يعد مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة ورمز للمقاومة الجزائرية ضد الاستعمار والاضطهاد الفرنسي، نفي إلى دمشق حيث تفرغ للتصوف والفلسفة والكتابة والشعر. وتوفي فيها يوم 26 مايو[1] 1883.

2/ بيعته ومقاومته

أدرك الأمير عبد القادر الجزائري صعوبة توليه الإمارة بعد مبايعته، فقد كان له معارضون شرسون وقفوا في وجه توليه للجهاد ضد المستدمر الفرنسي، إضافة إلى ضعف الحالة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في تلك الفترة، خاصة فيما تعلق بالحالة العسكرية للدولة الجزائرية. حيث " في سنة 1248 هـ= 1832م، بايعه اهل الجزائر وولوه القيام بأمرهم و محاربة العدو المحتل، و ذلك بعد أن طلبوا مبايعة والده فاعتذر عن قبولها، فلما بايعوه قام بالأمر أحسن قيام، وأحسن سياسة الرعية، مقتفيا آثار أسلافه السادة الأدارسة، فتمكن حبه في القلوب وامتثل لأمره الناس، وأنشأ معامل السلاح والأدوات الحربية، وظهرت منه شجاعة خارقة للعادة في مواجهة العدو"[2]، كما و"كان عمره 24 عاما، أميرا وزعيما للجهاد. وجاء في صك البيعة أن اختيار عبد القادر لكونه ذا حزم وعزم وشجاعة وعقل سليم وذات سليمة صالحة لتنفيذ الأحكام فاجتمع أهل الحل والعقد وبايعوه من غير طلب للإمارة ولا متابعة للنفس الأمارة، بل بايعوه رغما عنه ...ولم تكن البيعة فقط لجهاد الفرنسيين بل، لإنقاذ البلاد من الفوضى والفتن وجمع الكلمة. ولقب عبد القادر ناصر الدين"[3].

وقد وجه خطابه الأول إلى كافة العروش بعد قبوله البيعة قائلا: " ...وقد قبلت بيعتهم_أي: أهالي وهران وما حولها _وطاعتهم، كما أني قبلت هذا المنصب مع عدم ميلي إليه، مؤملا أن يكون واسطة لجمع كلمة

---

[1] محمد، الطمار، تاريخ الأدب الجزائري،1969م، 265/1.

[2] عبد المنعم، القاسمي الحسني، أعلام التصوف في الجزائر منذ البدايات إلى غاية الحرب العالمية الأولى، دار الخليل القاسمي للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2005م، 234/1.

[3] خير فارس، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي، دمشق، سوريا، 1969م، ص234.

المسلمين، ورفع النزاع والخصام بينهم، وتأمين السبل، ومنع الأعمال المنافية للشريعة المطهرة، وحماية البلاد من العدو، وإجراء الحق والعدل نحو القوي والضعيف، واعلموا أن غايتي القصوى اتحاد الملة المحمدية، والقيام بالشعائر الأحمدية، وعلى الله الاتكال في ذلك كله"[1]. ومنه نلاحظ أن الأمير كان يهدف إلى إصلاح أحوال البلاد والعباد وترميم ما أصابهم من دمار وتشتت بسبب فرنسا.

3/وفاته وأهم مؤلفاته

تعدُّ فترة مقاومة الأمير عبد القادر الجزائري المسلحة بين 1832 م 1847 –م من أهم الفترات التي شهدها العالم خلال القرن التاسع عشر ميلادي، ذلك أن شخصية الأمير من أعظم الشخصيات البطولية التي ساهمت وبشكل كبير في بناء الدولة الجزائرية الحديثة، وفي " منتصف ليلة السبت السابع عشر من شهر رجب 1300هـ/ 1883م انتقل الأمير عبد القادر الجزائري إلى رحمة الله، وذلك بقصره الكائن بـ(دمر) قرب دمشق، وقد تولى غسله وتكفينه نزيله الشيخ عليش، أحد علماء الأزهر الشريف. وقد خلف رحمة الله عليه عشرة من البنين: أكبرهم الأمير محمد ويليه محي الدين، الهاشمي ابراهيم، احمد، عبد الله، علي، عمر، عبد المالك، عبد الرزاق، وخلف أيضا ستار من البنات، وزوجة، و أ ربع أمهات أ ولاد"[2]، يقول عنه محمد السيد عثمان: " تاريخ الأمير عبد القادر تاريخ عظيم مشرف وهي حقيقة لا يستطيع إنكارها إلا جاحد مكابر، عطرت سيرته تاريخ هذا البلد المليء بالبطولات والأمجاد، ولا يحتاج منا إلى تشريف أو تكريم .فالناظر والمتفحص في تاريخ عبد القادر، يخرج بحقيقة واحدة هي إيمانه بالإنسان وما يمكن أن يقدمه للإنسانية، تاريخ غني ثري يحتاج إلى سنوات، وقال عنه فرحات _ جهد طويل للكشف عن كل حقائقه وخباياه" [3]، قال عنه فرحات عباس: " لا نتكلم عن أحاديث المعارك التي اشتبك أثناءها أولئك الضباط مع الجيش الج زائري الذي نظمه الأمير عبد القادر بعد أن أصبح روح المقاومة و رئيس الدولة الجزائرية، و كثيرا ما خرج من تلك المعارك ظاهرا منتصرا، و أعطى الدليل بأنه قد جمع الحذاقة والدبلوماسية الفائقة مع العبقرية العسكرية السامية والمهارة الحربية الرائعة"[4]، بالإضافة إلى شهادة قيصر روسيا في شخص الأمير عبد القادر، يقول: " نحن اسكندر جميع الروسيين، إلى الأمير عبد القادر: اقتضت رغبتنا أن نشهر التفافنا إليكم بشهامتكم وعملكم بما اقتضته الإنسانية، واجتهادكم

---

[1] محمد، الأمير، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1971م، ص11.

[2] القاسمي الحسني، أعلام التصوف في الجزائر منذ البدايات إلى غاية الحرب العالمية الأولى، ص 211 .

[3] محمد، الأمير، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، ص3.

[4] المرجع السابق، ص19.

في إنقاذ ألوف المسيحيين من أهالي دمشق الذين وجدوا في خطر عظيم"[1] ، فالأمير رحمة الله عليه سكنت في روحه حب الإنسانية حتى مع العدو الآخر.

له تآليف متعددة ومتنوعة منها أعمال فلسفية و تاريخية ودينية تصوفية، لعل أشهرها كتاب "المواقف " الذي اتبع فيه منهج شيخه ابن عربي في التصوف وكتابه" ذكرى العاقل وتنبيه الغافل" الذي يحتوي على رؤيا فلسفية ودينية، وكتابه" تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر و أخبار الجزائر "الذي قام بإخراجه ابنه الأكبر الأمير محمد بعد وفاة والده، وكتابه" المقراض الحاد "و ديوانه الشعري وغيرهم من الكتب والتآليف. و" كانت له مبرات كثيرة، من جملتها أنه كان يوزع راتبه على الفقراء والمساكين، وكان خرجه أكثر من دخله، حيث توفي وعليه ديون اقتضت بيع بعض أملاكه، و كان يعظم أهل العلم، حسن المسامرة لطيف المعاشرة، لا يرد سائلاً ولا يخيب قاصدا، وكانت رسائله تترى إلى جميع الجهات بحيث لو جمعت لبلغت عدة مجلدات، وله رحمة الله عليه خلوة بمنزله في قرية أشرفية يتحنثها في شهر رمضان من كل عام، وكان مدة عمره يتعبد على مذهب الإمام مالك، وكان يتنافس بزيارة الفضلاء ويتمثل بأشعار الأدباء وكانت تأتي إليه من كل فج، و يكافئ عليها بالجوائز العظيمة"[2]، فالناظر لسيرته رحمه الله يشهد له بطيب الخلق وحب الخيرات والدفاع عن حقوق الإنسان.

ثالثا: تجليات الحوار الحضاري في فكر الأمير عبد القادر

1/ التسامح

إن التسامح من أبرز الأعمال والصفات الأخلاقية التي ميزت حياة الأمير عبد القادر لأنه يعرف أن الشخص المتسامح يحظى بحب الله، وكان يبدو التوجه المسالم والمتسامح للأمير عبد القادر من كونه نشأ في أسرة تنتمي إلى طريقة صوفية بسيطة في حياته. وكان على وعي كبير بأن التسامح لا يقوم إلا على ضرورة مواجهة اللاتسامح، الذي يغذيه التعصب المفرط للمذهب أو الدين أو العرق... لقد تجاوز الأمير الإطار الضيق للمركزيات الإثنية والفواصل الثقافية التي تحد من سبل الحوار. إن التسامح الذي دعا إليه الأمير ليس من صنف التسامح الإيديولوجي الذي يكرس الظلم والتفرقة، فلقد وظف الأمير فكره في خدمة السلم والتسامح، وكان متسامحا مع شيوخ القبائل التي رفضت الاعتراف به وعارضت سلطته، لأنهم اعتقدوا أن نفوذهم سيتقلص إذا ما خضعوا له،

---

[1] المرجع نفسه، ص19.

[2] القاسمي الحسني، أعلام التصوف في الجزائر منذ البدايات إلى غاية الحرب العالمية الأولى ص211.

ولذلك حاولوا التصدي له بوسائل مختلفة. لم يقتصر تسامحه مع بني جلدته؛ بل تجسد حتى مع أسرى الحرب الفرنسيين.

- **تسامح الأمير عبد القادر مع أسرى الحرب الفرنسيين**

بالموازاة مع الثورة المسلحة ضد الغزاة الفرنسيين، كان الأمير عبد القادر يقود ثورة معنوية و معركة أخلاقية كان يمليها عليه الدين الاسلامي الحنيف، فكان يعامل أسرى الحرب معاملة الضيوف، ويوصي جنوده بالإحسان إليهم، ويأمر بتقديم أحسن الطعام إليهم، وطلب من أسقف الجزائر أن يرسل إليهم قسيسا خصيصا لهم ليصلي بهم، يقول تشرشل معبرا عن إعجابه الاستثنائي بهذه المسألة التي تهز المشاعر الإنسانية: "وبصدد هذا الموضوع كتب بطل الفكرة الإسلامية الذي لا يعرف المساومة إلى أسقف الجزائر كلمات تستحق أن تكتب بالذهب، قائلا:" أرسل قسيسا إلى معسكري. فسوف لا يحتاج إلى شيء وسوف أعمل على أن يكون محل احترام وتبجيل لأنه سيكون له وظيفة مزدوجة وهي أنه رجل دين وممثل لك "[1]. ولما انتشرت أخبار حسن معاملة الأمير للأسرى بين الفرنسيين رفضوا مبدأ مبادلة الأسرى، كي لا يتحدث الأسرى بين ذويهم عن كرم الأمير وحسن أخلاقه ونبله". إن هذه المواقف لتعبر بحق عن سمو معاملة الأمير للأسرى من الجنود والضباط والنساء، فكان "مثالا للعدل والرحمة حتى مع أعدائه وظالميه، وتجلى هذا في حسن معاملته للأسرى، حين كان ينتصر في كثير من المواقع على الفرنسيين، وقد أفرد" تشرشل "الفصل السادس عشر من تاريخه لذكر حسن معاملة الأمير للأسرى، ورحمته م وشفقته عليهم، إذ كان يكافئ من يأتيه بالأسير حيا أكبر مكافأ ة، ولقد كان الأمير كما قال" فاليوت" في تاريخه: "عدو كريم الأخلاق"[2]. وكتب أحد الضباط الفرنسيين معترفا بأخلاق الأمير في معاملة الأسرى قائلا: "إن هناك عددا لا يحصى من الأعمال الباهرة التي لا يعرفها إلا الضباط الفرنسيون الكبار والتي تشهد كلها على سمو همته. ولقد كان علينا أن نخفي هذه الأشياء بقدر ما نستطيع على جنودنا، لأنه لو اطلعوا عليها لما كان في استطاعتنا أبدا أن نجعلهم يحاربون عبد القادر بنفس الاندفاع"[3].

ويظهر تسامح الأمير وكرمه في قوله:

---

[1] شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر، ص56.

[2] بركات محمد مراد، الأمير عبد القادر الجزائري المجاهد الصوفي، دار النشر الالكتروني، ص21.

[3] المرجع نفسه، ص22.

نحن الملوك فلا تعدل بنا أحدًا وأيُّ عيشٍ لمن قد بات في خفر؟

لا نحمل الضيم ممَّن جار. نتركه وأرضه. وجميع العزِّ في السفر

وإن أساء علينا الجار عشرته نبين عنه بلا ضررٍ ولا ضررَ.

نبيت؛ نار القرى تبدو لطارقنا فيها الداواة، من جوع ومن حضر

عدوُّنا؛ ماله ملجأ ولا وزرٌ وعندنا عاديات السبق والظفر[1].

ويقول:

ويوم قضى تحتي جوادٌ برميةٍ وبي حدَّقوا، لولا أولوا البأس والقوى[2].

في هذ البيت إشارة إلى حادثٍ غريبٍ من نوعه، كان الأمير قد أطلق جماعةً من أسرى الفرنسيين بعد أن عاملهم معاملةً حسنةً جدًا، ولما التحقوا بجيشهم سيَّرتهم فرنسا راغمين إلى قتال الأمير على اعتبار أنهم أعرف به من سواهم، وباستطاعتهم أن يكشفوه في المعركة ويباغتوه بالقتل أو الأسر. ولكنَّهم حينما رأوا الأمير قد سقط عن فرسه وهو يحاول الدفاع عن جثة ابن أخيه الشهيد، ريثما يحمله المجاهدون إلى الخطوط الخلفية، وحينما رأوا أن رفاقهم من الجنود الفرنسيين الآخرين يهاجمونه بشدة، أحدق به هؤلاء الأسرى الطلقاء كالحلقة ودافعوا عنه وحموه ريثما أتي له بفرسه فركبه وأتم القتال وربح المعركة[3]. وهذه الحادثة تؤكد ما كان يتمتع به الأمير من خلق التسامح مع الآخر الذي يعترف به العدو قبل الصديق

2/ الانفتاح على الأديان

يبقى التعدُّد والاختلاف الدينيُّ واقعٌ، والاعتراف به حتميَّةٌ للعيش في جوٍّ من السلام الداعي إلى التشارك الإنسانيّ والحضاريّ، ومن يعي حقيقة الأديان وجوهرها، يدرك أنَّ قيمة الإنسان بدينه وبالأديان المخالفة له، وهو المنطلق في الدعوة للتَّعايش السلميّ. وسيظلُّ فكر الأمير عبد القادر أحد وسائل القوى

---

[1] ديوان الأمير عبد القادر، قصيدة ما في البداوة من عيب، ص26.

[2] المصدر نفسه، قصيدة شددت عليه شدة هاشمية، ص33.

[3] انظر : المصدر السابق، ص33.

النَّاعمة المناهضة للتَّطرف الفكريّ، والمكافحة له بأشكاله المختلفة، من أجل الرقي بالإنسانيَّة والنهوض بها. كما أنَّه يدعو إلى التَّسامح مع كلِّ الأديان، لأنَّ مصدرها واحدٌ وهو الله، وجوهرها واحدٌ، وهدفها متَّحدٌ؛ لهذا يمكن القول إن الأمير عبد القادر رجل الإنسانية جمعاء، كان يحترم الإنسان مهما كانت ديانته وثقافته وجذوره. فابتداءً من سنة 1837 قام الأمير بتحديد مفهوم حقوق المستضعفين والأسرى وجرحى الحرب والمعطوبين والسجناء وقام بتقنين هذه الحقوق التي كانت مجهولة تماما آنذاك. فالأمير عبد القادر قام بصياغة مرسوم يمنع على جنوده المساس بكرامة الأسرى وبسلامتهم الجسدية كما يحظر تعذيب الأسرى وقتلهم.

والإنتاج الفكري والشعري للأمير عبد القادر ومواقفه السياسية فيما يتعلق بحوار الديانات والحضارات والتعايش السلمي مع مختلف الشعوب والدول، إلى جانب فكره وأيديولوجيته وعمله في الميدان يمثل أدلةً قاطعةً تفنِّد مختلف الادِّعاءات والصور النمطية والأفكار التضليلية والتشويهية للتَّعايش السلمي، واحترام الديانات والحضارات الأخرى، ويشهد التاريخ للأمير عبد القادر مخاطرته بحياته، وموقفه الشجاع عندما تدخل سنة 1860 في دمشق ليضع حدًا للصراعات الطائفيَّة التي وقعت بين المسلمين والمسيحيِّين حيث ساهم في إنقاذ 15000 من المسيحيّين والقناصل والرهبان. إنَّ ما قام به الأمير عبد القادر في دمشق ساهم في انقاد آلاف الأرواح، حيث جنَّب البشرية جمعاء حربًا صليبيَّةً لو حدثت لكلَّفت البشريَّة الكثير.

- **واقعة أحداث ماي 1860ودور الأمير في إخمادها**

لعل من أبر المواقف التي تجلى فيها تسامح الأمير عبد القادر مع الأديان هي فتنة أحداث ماي من سنة 1860 التي وقعت في الشام بين المسلمين والنصارى. لقد جسدت تلك الحوادث الصورة الحقيقة لفكر الأمير عبد القادر وإيمانه بالحوار والتسامح بين الأديان وإمكانية التعايش بين الشعوب بعيد عن الحروب وسفك الدماء. من هذا الإيمان العميق المشبع بالروح الدينية والمواقف الإنسانية الشريفة اندفع الأمير لإطفاء نار الفتنة، وهو ما يعكس حرصه على حقن الدماء والبحث عن السلام لأن الحرب لم تكن خيرا على الناس في أي زمان أو مكان. قبل وقوع الفتنة جمع الأمير عبد القادر الأعيان ووجهاء القوم من أهالي دمشق وخاطب فيهم خطبة شهيرة حذرهم فيها من عواقب الحروب الطائفية وبين لهم أن الأديان تدعو إلى التسامح والحروب ما هي إلا نتيجة فهم ساذج للدين الذي يروجه معتنقي الفكر المنحرف الضال، قائلا: "إن الأديان وفي مقدمتها الدين الإسلامي أجل وأقدس من أن يكون خنجر جهالة أو معول طيش أو صرخات نذالة تدوي أفواه الحثالة من القوم. أحذركم أن تجعلوا

لشيطان الجهل فيكم نصيبا، أو أن يكون له إلى نفوسكم سبيلا"[1]. ومع انطلاقة الفتنة "بقي الأمير أربعة عشر يوما متوالية لم يفتر فيها لحظة عن نصرة المظلومين، وإنقاذهم من القتل، وأشرف على تطبيب الجرحى، وقام على تعزية الثكالى والأرامل والأيتام، وكان يقضي أكثر الليالي ساهرا وبندقيته في يده حرصا على من في حماه"[2].

لقد تخطى الأمير نظريا السياجات اللاهوتية الدوغمائية وتجاوز كل المعتقدات والتصنيفات الإيديولوجية الدينية التي ترسم الحدود الوهمية والخطيرة وتفرق وتفصل بين الشعوب، وتثير بينهم العداوة بدل التعاون والتواصل الطبيعي الذي يقتضيه التجمع البشري. ومن هذا المنظور كان الأمير عبد القادر يؤسس لفكرة التسامح الديني، ويرسم معالم هوية عالمية تتلاشى فيها الفواصل وتتقلص فيها المساحات التي تبعد الناس عن بعضهم البعض، ويمثل الاختلاف فيها نسيج وجماليات الوجود كله، يقول الأمير عبد القادر:

أنـا الحـبُّ والمحـبُّ والحـبُّ جملـة ... أنـا العَاشِـقُ المعْشُـوقُ سِـرًّا وَإِعْلاَنـا

فَفِـيَّ أَنَـا كُـلّ مَـا يُؤْمِلُـهُ الـوَرَى ... فمـن شـاء قرآنًـا ومـن شـاء فرقانـا

ومـن شـاء تـوراةً ومـن شـاء إنجـيلاً ... ومـن شـاء مزمـارًا ومـن شـاء زبـوراً وتبيانـا

ومـن شـاء مسـجدًا يناجيـه ربُّـه ... ومـن شـاء بيعـة ناقوسًـا وصـلبانا

ومـن شـاء كعبـةً يُقبِّـل رُكنهـا ... ومـن شـاء أصـنامًا ومـن شـاء أوثانـا

ومـن شـاء خُلـوةً يكـن بهـا حاليًـا ... ومـن شـاء حانـةً يغـزل غزلانـا

ففـيَّ أنـا مـا قـد كـان أو هـو كـائنٌ ... لقـد صـحَّ عنـدنا دلـيلاً وبرهانـا[3]

يقرُّ **الأمير عبد القادر** في هذه الأبيات التَّنوُّع والتَّعدُّد الدينيّ، ويعلن أنَّ الخلق كلَّهم يعرفون الله، ولو

---

[1] نزار أباضة، الأمير عبد القادر العالم المجاهد، دار الفكر دمشق سورية، ط1، ص16.

[2] المرجع نفسه، ص17.

[3] الأمير عبد القادر، المواقف الروحية والفيوضات السبوحية، تح: عاصم إبراهيم الكيلاني، دار الكتب العلمية، د.ط، 2004م، 38/1. ولمعرفة المزيد حول تصوف الأمير عبد القادر الجزائري، يمكن مراجعة كتاب جواد المرابط، التصوف والأمير عبد القادر، وزارة الثقافة بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007م. وكتاب عبد الرزاق البيطار، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، تح: محمد بهجة البيطار، ط1، 1961م، وكتاب يوسف النبهاني، جامع كرامات الأولياء، تح: إبراهيم عطوة عوض، مركز أهل سنة بركات رضا (الهند)، ط1، 2001م.

بوجهٍ من الوجوه بالمعرفة الفطريَّة، كما لا ينفي معرفة سائر أهل الأديان بالله تعالى.

لقد ضرب الأمير عبد القادر مثلا أعلى في التسامح والمحبة والإخاء والبعد عن التعصُّب من خلال هذا الموقف الإنساني النبيل من تلك الفتنة الطائشة؛ حيث انتقلت أخبارها إلى مختلف بقاع العالم، مما جعل ملوك ورؤساء أوروبا وحكام العالم ينظرون إليه بعين الإكبار والإجلال، ويمنحونه الأوسمة والهدايا الفخرية من الدرجة الأولي على شجاعته ومواقفه البطولية والإنسانية، "فنال وسام الجوقة الفرنسي، ووسام صليب النسر الأبيض الروسي، ووسام صليب النسر الأسود البروسي، ووسام صليب المخلّص اليوناني، وأهدت إليه ملكة بريطانيا بندقية مرصعة بالذهب"[1]. فكان رد الأمير حين "كتب بعد هذه الفتنة معبرًا عن سبب موقفه النبيل، يخاطب ملكة بريطانيا:" إنَّني لم أفعل إلاَّ ما توجبه عليَّ فرائض الدين، ولوازم الإنسانيَّة[2].

لم يقتصر المعجبون بالأمير عبد القادر على الملوك والرؤساء، بل حظي بإعجاب وتقدير ومدح الكثير من الكتاب والشعراء والمؤرخين العرب والأجانب، فقد مدحه على هذا الموقف الشجاع الشاعر أمين الجندي قائلا :

إليك انتهى الـد الرفيـع المؤثّـل وعنـك، أحاديـث المكـارم، تنقـل

وفي الشام، لما أن بغـى النـاس، على بعضهم بعض، بمـا ليـــس تقبـلٍ،

نهضت لإخماد الفساد، بهمـةٍ، تزيـل الرؤوس. والأســـود تجنـــدل

بذلت، من الأموال، وفـرا، بمثله يضـن سخـــي الطبــع، والمتمـــول

صنيعك هذا ليس يقـدر قــدره ولا أحـــد حقـــا لـــــه يتوصـــل

قصدت به مرضاة ربك، مخلصا وما خاب عبـد، في رضى الله، يعمـل

---

[1] نزار أباضة، الأمير عبد القادر العالم المجاهد، ص18.

[2] المرجع نفسه، ص18.

خاتمة

يمثل الأمير عبد القادر صفحة مجيدة واستثنائية من تاريخ الجزائر المعاصرة لن يتمكن الزمن من إلغائها عن الوعي الثقافي والفكري والوجودي لأبطال التاريخ، فقد جسد أقصى درجات الوعي في الزهد المطلق، ورفض الاستعمار، وقدم دروسا في الحوار والتسامح، كما آمن بالتعددية الدينية والهوية الدينية؛ حيث إنَّه كان يؤمن بالتَّقارب بين الشعوب والحضارات والديانات والتَّسامح والحوار بدلًا من التَّصادم والصراعات والنِّزاعات. الذي يعدُّ أحسن ميراث تركه الأمير عبد القادر للإنسانية جمعاء حيث يمكن استثماره في عالمنا المعاصر ليعيش بسلام من دون تلويث العالم بالدماء والحروب والمذابح الجماعية. وبذلك يظل الأمير قيمة ثقافية إنسانية نادرة يشهد له بها الخصوم قبل الأصدقاء.

المصادر والمراجع

- السايح، أحمد عبد الرحيم، الغزو الفكري (الحوار الحضاري)، د.ن، قطر، ط1، 1414هـ/1993م.
- المبرد، محمد بن يزيد، الكامل في اللغة والأدب، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة (مصر)، ط3، 1997م.
- المصعبي، عبد الملك منصور، حوار الحضارات: المفهوم والمقومات، ضمن أعمال ندوة (موقع الإسلام في القيم الكونية وحوار الحضارات)، مركز الدراسات الإسلامية، القيروان، تونس، 2005م.
- النحلاوي، عبد الرحمن، أصول التربية الإسلامية وأساليبها، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط1، 1983م.
- بطاينة، محمد ضيف الله، مفهوم الحضارة، نقلا عن موقع: https://khutabaa.com/%D8%AE/210422%، بتاريخ: 2019/02/10م، الساعة: 10:25.
- بن الحسن، بدران، في مفهوم الحضارة، مجلة نوافذ: اتجاهات فكرية، الخميس، ذو القعدة 1424الموافق 25 ديسمبر 2003.
- بوروايح، محمد، نظريات حوار وصدام الحضارات _رؤية تحليلية نقدية_، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، ط1، 2010م.
- رواه البخاري، في صحيحه، كتاب البيوع، باب النهي عن تلقي الركبان، برقم3،72/2162.
- سامية، بوعمران، الأمير عبد القادر رمز المقاومة الجزائرية.

- صحراوي، إبراهيم، هل النص الأدبي فضاء للحوار؟، مجلة الآداب واللغات، جامعة الجزائر، ع1، جوان 2006م.

- طرابيشي، جورج، معجم الفلاسفة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت (لبنان)، ط1، د.ت

- غارودي، روجيه، في سبيل حوار الحضارات، تر: عادل العوا، منشورات عويدات، بيروت، ط4، 1999، ص10.

- نزار أباضة، الأمير عبد القادر العالم المجاهد، دار الفكر دمشق سورية، ط1.

-ابن منظور، لسان العرب، طبعة دار المعارف، مصر، د.ط، د.ت، 2/ 1042.

-بركات محمد مراد، الأمير عبد القادر الجزائري المجاهد الصوفي، دار النشر الالكتروني.

-حنان معاشو، مولاي مقدم، الإنساني والديني في فكر الأمير عبد القادر الجزائري، مجلة الاستيعاب، مج4، ع2.

-خير فارس، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي، دمشق، سوريا، 1969م.

-شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر.

-عبد المنعم، القاسمي الحسني، أعلام التصوف في الجزائر منذ البدايات إلى غاية الحرب العالمية الأولى، دار الخليل القاسمي للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2005م.

-محمد، الأمير، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1971م.